



دور السؤال القرآني في التنمية العقائدية

الأستاذ المشرف: دكتور أسعد السلطان

الطالب: حيدر كاظم جاسم العريضي

يتمحور بحثى الموسوم بـ ((دور السؤال القرآنى فى التنمية العقيدية)) حول الجدل القرآنى بالسؤال المجازى وأهميته، وما يكتنفه من براهين عقلية فى جميع صيغه وأقسامه المتعلقة بالاستدلال العقيدى، فقد ورد السؤال العقيدى فى القرآن الكريم أكثر من ((٧٠٠)) آية -بحسب إحصائى - كان أغلبها وروداً فى مجال إثبات عقيدة التوحيد وبصيغة السؤال الإنكارى، ثم يأتى السؤال التقريرى بعده بالأهمية وكثرة الاستعمال، وتحت كل قسم رئيسٍ منهما تدرج عدّة معانٍ متضمنةٍ من خلال التداخل الدلالى الذى يُعطى السؤال معنىً أوسع وبياناً أبلغ قلّ نظيره من الأساليب الأخرى، وقد جاء تصنيفى للسؤال العقيدى بما ينسجم وروح الدعوة القرآنية فى الحوار مع المقابل، فالأسلوب الإنكارى يهدف إلى تخلية النفس من العقائد الفاسدة بهدم الأوهام ونقض المغالطات، وأمّا الأسلوب التقريرى فيهدف إلى إذعان المقابل بالثوابت العقلية والمسلّمات البديهية وبناء الأصول العامة للعقيدة الإسلامية، ثم يأتى الدور التكميلى للسؤال بأسلوب الوعيد والوعد الآلهى ترهيباً من العذاب وترغيباً بالثواب لغرض هداية الضالّة الى سواء السبيل. لقد استقرت الآيات المباركة وصنفت ما ورد منها فى الاستعمال إلى ثلاثة أقسام، فالقسم الأول تناول أصل التوحيد وقد أتمّ الجدل الوارد على لسان الحقّ وأهله بالبساطة فى الطرح وإيراد الأدلة العقلية فى إثبات التوحيد بدلالة أسماء الذات والصفات والعدل الإلهى ببراهين واضحة لكلّ ذى عقل. أمّا القسم الثانى فكان يدور حول دور السؤال القرآنى فى إثبات أصل النبوة والذى كان جوهر دليلها هو الإعجاز القرآنى، ثم اختصاص النبىّ الأكرم بالتكامل المطلق، ثم ختمتُ البحث بأصل المعاد وذكرتُ الأدلة على إثباته وأهمها ما يشاهد بالحسّ من آثار الأمم التى أهلكت بذنوبها. هذا وقد ظهرت عدّة نتائج من مقالتي وهى كالتالى:

١. يُعتبر السؤال من أهم الأساليب فى الاستعمال القرآنى وأكثرها فى جدال الكافرين والمشرّكين، ولا زال استعماله فى الحوار الفكرى والعلمى قائماً فى الإثبات والنقض؛ لغرض توحيد كلمة أمة التوحيد على التقوى، ورصّ صفوف المسلمين بوجه تيارات الكفر والغواية.
٢. إنّ التنمية العقيدية بالسؤال القرآنى أعمدت أبسط الأدلة العقلية وأوضح البراهين فى تطوير الفكر الإنسانى والعقل البشرى، والتحرر من الأفكار المسبقة والتقليد الأعمى.

٣. أستخدم القرآن الكريم أسلوب السؤال الإقناعي في سجالاته العقيدية، وطرح الأسئلة لغرض التعليم والإقناع العقلي بأسلوبه الجدلي، مما يؤكد على أهمية التلاقح بين علوم الفلسفة والدين في تنمية الأسلوب الجدلي وازدهاره.

٤. أتمسم الحوار القرآني بمنهجية خاصة في استعماله للسؤال العقيدية، فكان المنحى الجدلي يسير بثلاثة سبل استدلالية، الأول هو السؤال الإنكاري وهو الغالب، وغايته نفى وإبطال العقائد الباطلة وتخليئة النفس من براثنها، والثاني هو السؤال التقريري، وغايته التذكير والتنبيه للعقيدة الحقّة وتثبيتها في النفس بالإذعان والاعتراف الاختياري، والثالث هو سبيل مشترك بين الإنكاري والتقريري، وغايته التأثير النفسي بأسلوب الوعد والترهيب من العذاب وترغيباً بالنعيم.

٥. إن طبيعة الاستدلال القرآني بالسؤال أتمت بصورة عامّة بالبرهنة العقلية الواضحة والإثبات البسيط غير المركب؛ لكي يدركه كل إنسان وبجميع مستويات تفكيره من العامى البسيط إلى العالم، فتتم الحجة البالغة على جميع المكلفين. حيث تناولت الآيات القرآنية ثلاثة مضامين عقيدية وهي أصول العقيدة الإسلامية، فالمضمون الأول هو عقيدة التوحيد حيث جرى الاستدلال على إثباته من خلال استعمال السؤال المجازي بالدلالة على أسماء الذات والصفات والعدل الإلهي، أمّا عقيدة النبوة فقد تمّ الاستدلال عليها من خلال الأعجاز القرآني والكمال النبوي وخليفته من بعده، ويأتي مسك الختام لدور المعاد الأخرى وأثره في إثبات التوحيد من خلال ملازمات أسماء الذات وبعض الشواهد الحسية كآثار الدالة على إهلاك الأمم السابقة.

مصطلحات البحث (الكلمات المفتاحية): السؤال. الاستفهام المجازي. التنمية. الأسلوب الجدلي. الاستدلال العقلي. العقائد.

المقدمة

الحمد لله بقدر نعمه، والصلاة على خاتم رسله وآله المعصومين ورضى عن أصحابه المنتجبين،

إن الاعتراف بالدور المرجعي للقرآن الكريم وأثره في توحيد هندسة البناء المعرفي يحقق حلّ جميع الأزمات الفكرية والخلافات العقيدية، فالحلّ الوحيد هو العودة لقانون القرآن الكريم في معالجة الأزمة الثقافية للأمة الإسلامية، كما أهتم الخطاب الإلهي بعرض جميع المعارف النافعة للبشرية بنحو من التصريح أو التلويح الإشاري، ومن أهم تلك المعارف هي المعرفة الدينية بأصولها وفروعها من عقائد وشرائع وأخلاق، وأولى الجانب العقيدى منها أهمية بالغة، وكانت السمة البارزة في المنهج الاستدلالي لإثباتها هو الدليل العقلي، وأمتطى الخطاب المقدس وسائل كثيرة لاستدلالاته فمنها الجمل الخبرية ومنها الإنشائية الحقيقية منها والمجازية، ومن أهم تلك الوسائل المستعملة في الحوار القرآني هي وسيلة السؤال المجازي.

ومما تقدّم أجمع لدى الباحث ثلاثة عناصر في بحثه وهي: الاستدلال العقلي، والمعرفة العقيدية، ثم منهج الاستدلال بالسؤال المجازي، ومن هنا يظهر للمتتبع أهمية البحث النابعة من أهمية عناصره ومقوماته الثلاث الكافية لجعلها سبباً في اختياري هذا العنوان موضوعاً لبحثي الموسوم بـ(دور السؤال القرآني في التنمية العقيدية) وهو عبارة عن دراسة تطبيقية بأسلوب تحليلي لمنهج الاستدلال العقيدى بالسؤال القرآني.

تكمن أهمية البحث عن السؤال القرآني في دوره الأساس في الجدل القرآني مع المخالفين للحق؛ لإحداث التغيير المقصود للرسالة القرآنية والمعبّر عنها بالهداية. فالغاية الكبرى للخطاب الإلهي هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور عبر تنمية القدرة الفكرية وتحريك الطاقة العقلية. والغرض من البحث هو الاستفادة من تلك المعاني البليغة في حوار أهل الحق؛ لإثبات أصول الدين الإسلامي وما يتعلّق بها من عقائد، وما يستلزمه هذا الحوار من إبداع في التنمية العقيدية وتأثيرها في قلب المخاطب سواء أكان كافراً أم متردداً في إيمانه أم ضعيف الإيمان، فالغرض من منهجية الحوار العلمي هو التنوير والهداية إلى سبيل الحق.

مشكلة البحث

إنّ مشكلة البحث تكمن في التساؤل عن دور السؤال القرآني في التنمية العقيدية، فلم يبحث هذا السؤال في منهجٍ علميٍّ خاصٍّ به. إنّ السؤال -مطلقاً- من أهم وسائل توليد المعرفة والتعلّم البشري، ومن أكثر الظواهر استعمالاً وأقدمها تجذراً في فطرة الانسان، وما يتعلق بالسؤال المجازي فدوره لا يخفى في جدال المتكلمين ومن قبلهم من الحكماء مع المغالطين، فمحور البحث يدور حول تسليط الضوء على المنهج القرآني في استعمال السؤال الجدلي بمعانيه المتعددة وأقسامه المتناسبة مع التنمية العقيدية، ومن هنا جاء البحث عن ماهيته وأقسامه وإثارة النقاش حوله بغية الوصول إلى مناحي استدلالية مقنعة.

أسئلة البحث

السؤال الرئيس: ما دور السؤال القرآني في التنمية العقائدية؟.

الاسئلة الفرعية:

- ١- ما المراد من السؤال ؟ وما أقسامه وادواته؟ وما دوره في الاستدلال وتوليد المعرفة؟.
- ٢- ما أساليب السؤال الاستدلالي القرآني في مجال التنمية العقيدية؟.
- ٣- ما مضامين السؤال العقدي في القرآن الكريم؟، وما أثر السؤال في تنميتها؟.
- ٤- ما أبرز النتائج المترتبة على استعمال النص القرآني لأسلوب منهج السؤال في مجال التنمية العقيدية ؟.

أهداف البحث

تتلخص أهداف بحثي في إيجاد الطريقة المثلى للجدل العقيدى، وهذه الطريقة بحاجة إلى منهجٍ عامٍ تقوم به وتتقدم نحو التنمية العقيدية من خلال الرؤية القرآنية للوجود وطريقة الحوار مع المخالفين.

معنى السؤال لغةً واصطلاحاً

السؤال فى اللغة يعنى: الطلب، فسألت العافية يعنى: طلبتها، وسأله الشىء، من قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾^١ أى: عن عذاب واقع، ورجل سؤك، كثير السؤال وتساءلوا سأل بعضهم بعضاً عن أمر ما.^٢

وفى الاصطلاح فى معنى: "استدعاء معرفة أو ما يؤدى إلى المعرفة،.. فاستدعاء المعرفة جوابه على اللسان، واليد خليفه له بالكتابة أو بالإشارة،.. والسؤال للمعرفة تارة يكون بالاستعلام وتارة للتبكييت وتارة أخرى لتعريف المسؤول وتنبيهه لا ليخير ويعلم".^٣

ومن خلال ما تقدم يظهر أن السؤال لغةً يعطى معنى طلب الشىء والفهم والإيضاح والدعاء والاستفسار ويُطرح على شكل استفهام، وفى الاصطلاح يعنى طلب معرفة أو ما يؤدى إليها، وله معنى مجازى هو مدار بحثى فى هذا المقال.

^١ سورة المعارج: ١

^٢ انظر: محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ٣١٨؛ واحمد بن زكريا، ابن فارس، مجمل اللغة، ج ١، ص ٤٨٢؛ وجار الله، الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٢٨١.

^٣ الحسين الراغب، الاصفهاني، المفردات فى غريب القرآن، ج ١، ص ٢٥٠؛ واسماعيل حقى الخلوٲى، البروسوى، روح البيان فى تفسير القرآن، ج ٢، ص ٦٠٢.

أقسام الاستفهام

إنّ الاستفهام من أنواع الإنشاء الطلبى ويعنى: طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلوماً من قبل، بإحدى أدوات الاستفهام، وهو نوعان هما:

أحدهما: الاستفهام الحقيقى: وهو الذى ورد على أصل معناه، وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول، كما فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾^٤.

والآخر: الاستفهام البلاغى أو المجازى: هو أحد الأساليب المستخدمة فى اللغة العربية من أجل الوصول إلى هدف معيّن، أى: أنّ هذا النوع من الاستفهام لا يقصد به الاستفهام بعينه؛ وإنّما يُراد منه قصدٌ آخر غير الاستفهام؛ كأن يكون لغرض التوبيخ أو التقرير أو ما شابه ذلك. فالغرض منه هو غرضٌ بلاغى وليس استفهاماً حقيقياً، ولهذا الاستفهام حضور واسع فى القرآن الكريم.

وخروج الاستفهام عن أصل وضعه من الظواهر الأسلوبية التى لفتت أنظار الدارسين والباحثين منذ عهد مبكر، ولم يخل عملٌ من أعمال الرواد من الوقوف عنده وأشاروا إلى أسرارهِ الفنية بعمق.

الاستفهام المجازى فى القرآن الكريم (الدلالة والمضامين)

إنّ الله (جل وعلا) لا يستفهم خلقه عن شيء—فهو العَلَّام—، وإنّما يستفهم ليقرر خلقه ويذكرهم أنّهم قد علموا حقّ ذلك الشيء، وهذا أسلوبٌ بديع انفرد به الخطاب القرآنى.

وكما تقدّم من خروج الاستفهام عن أصل وضعه إلى المعنى المجازى الذى يُفهم من خلال السياق وتركيب الكلام حيث "يُعد الاستفهام من أبرز وأهم الخصائص اللغوية التى أمتاز بها الجدل القرآنى؛ لأنّه من طبيعته الجدل فلا يمكن أن يدور جدل بين طرفين خالٍ من الاستفهام"^٥.

فالقرآن الكريم حافل بالأساليب الإعجازية، وأغلب آيات الجدل فى القرآن الكريم كانت مكيّة—نزلت قبل الهجرة المباركة—تجادل مشركى قريش ومن تحالف معهم، حيث أنّ "مع كثرة أنواع السؤال فى المكيّ نجده كثير الدلالة على الأغراض البلاغية إذ يفيد كثيراً معانى الإنكار والتقرير والطلب والتوبيخ وغير ذلك"،^٦ ومن أهم تلك الأساليب هو استعمال أسلوب الاستفهام المجازى فى خصوص الحجاج العقائدى. وقد أحصى بعض الباحثين "ما يزيد عن مائتين وألف سؤال (بالضبط ١٢٦٠) أغلبها أسئلة

^٤ سورة الاعراف: ١٨٧

^٥ يوسف عمر لعساكر، الجدل فى القرآن، ص ٣٠٥.

^٦ وردة كحيل، السؤال فى ضوء القرآن، ص ٤٦.

يسألها الله سبحانه وتعالى لخلقه"^٧، وهو دليل على أهمية السؤال المجازى ومكانته فى الجدل العقدى. وقد أحصيتُ بالاستقراء التام لآى القرآن الكريم ما ينيف عن (سبعمئة آية) ، أستعمل فيها السؤال المجازى بخصوص ما ورد على لسان الحق وأهل الحق فى جدال عقيدى مع الكافرين ومع ضعاف الإيمان كلٌ بحسب حاله ومستواه؛ لغرض الارشاد وتبيين سبل الهداية والصلاح. وربما يوجد أكثر من سؤال فى آية واحدة، وقد يتكرر السؤال فى مواضع متعددة، وفيها من سحر البيان وروعة النظم البلاغية ما يعجز اللسان عن وصف حلاوته وجمال طلاوته، "وحين يخرج الاستفهام الى المجاز، إنما يودى ظاهرة جمالية وبلاغية لا تُعرف فى الأسلوب الحقيقى الذى يسأل به المتكلم عن شىء معروف او مشهور،... فالأسلوب المجازى يعتمد على السلائق والذوق والسياق والقرائن التى يدور حولها الكلام"^٨.

ومن وجوه ثراء معانى الاستفهام المجازى هو تنوع أساليبه وتعدد معانيها، حتى اختلف فى دلالاته علماء اللغة والبيان؛ مما أدّى الى اختلاف توجيهاتهم التفسيرية، ولم يجد الباحث تقسيماً موحداً لأساليب السؤال فى كتب اللغة والبيان. ويسبب تعدد الوجوه القرآنية للآيات ذات الأساليب المجازية وعمق دلالتها، ارتأيت أن أصنف أساليب الاستفهام المجازى، وأجمع بين تلك المعانى فى ثلاثة أقسام رئيسة تجمع مضامين السؤال المجازى، فكل أصل يتضمن عدّة معانٍ -بحسب ما أشار اليه علماء اللغة والتفسير من التداخل الدلالى- محاولةً منى لربطها بموضوع التنمية العقائدية والاستفادة منها لتوجيه البحث وتنويعه؛ لأجل حمل مباحثه على الدلالات العميقة المتوخاة من الدعوة القرآنية الحكيمة فى الجدل الأحسن وما تقتضى الدعوة من حكمة وموعظة حسنة. ويمكن تقسيم معانى الاستفهام المجازى الى ثلاثة معانٍ رئيسة يضم كل معنى عدداً من الأساليب المناسبة للمعنى الأساس والمرتبطة به، وهى ما يلى:-

الأول هو السؤال الإنكارى ومضامينه القرآنية، والثانى هو السؤال التقريرى ومضامينه القرآنية، والثالث هو السؤال الترهيبى والترغيبى ومضامينه القرآنية.

وهو تقسيم أشار اليه علماء اللغة والتفسير فى مضان أبحاثهم، وفى شواهد تفسيرية جادت بها أقلامهم -كما سيأتى من مباحث فى هذا الفصل-، وهذه المعانى التى ذكرت تُعد من أبرز أغراض الاستفهام، وقد فرّع العلماء السؤال أقساماً كثيرة حتى بلغت (٣١) غرضاً، وهذا التقسيم يعمل وفقاً لمنهج جدلى مبنى على أساس تحقيق حالة التخليّة من الأفكار الضالة والتحلية بالعقيدة الحقّة، وهو

^٧ محمد على يوسف، أسلوب الاستفهام فى القرآن، ص ٤، مقال.

^٨ حسين جمعة، جمالية الخبر والانشاء، ص ١٤١.

يتناسب مع ما تقدم من أساليب العقلاء والفلاسفة في مجادلة أهل اللغظ والسفسطة، حيث أعتمده الأوائل في طرق الهدم والبناء التهكمية والاستدراج المنطقي للمخالف بأسئلة إقناعية؛ لغرض تحريك فكر الضال، وإيقاع المقابل بالتناقض والعجز الفكري،^٩ مع اختصاص الجدل القرآني بطريق ثالث تميز باستعماله الا وهو أسلوب التهيب والترغيب -وعيداً بالعذاب ووعداً بالثواب؛ نظراً لانتواء السؤال على مقدمات تكشف عن فهم عميق لمدلول السؤال ومحور الجدل، وسأجهد من خلاله التعرف على مقدمات الإنكار من مفاهيم عقلية وأدلة علمية تنفي زعم المقابل وتبطل معتقده، وكذا في السؤال التقريرى وما ينطوى عليه من مقدمات علمية وثوابت مسلمة يقرُّ بها المقابل. وبناءً على التقسيم أعلاه سأذكر أهم تلك الأساليب العاملة والجامعة للمعنى فى أداء تلك المهمة الخطيرة، والتي أسماها بعض العلماء بـ "الفقه الأكبر"، معتمدً فى تنويع البحث على المقدار المهم والضرورى من الأساليب القرآنية العاملة فى التنمية العقيدية، مع اتخاذ منهج الجمع الدلالى بين معانى تلك الأساليب؛ لإظهار عمق المعنى البلاغى للقرآن الكريم وروعة بيانه.

^٩ انظر: يوسف عمر، لعساكر، الجدل فى القرآن، ص ٣٤.

مضامين السؤال القرآني

يملك السؤال الجازي في القرآن الكريم روح المناورة وفن التداخل الدلالي المبدع في مجادلة الآخرين جدالاً تصل من خلاله المفاهيم إلى ذهن كل مخاطب -البسيط والعالم- في أقصر طرق الاستدلال كالبدهاء والضرورة، وحواره فيه أبلغ المعاني المحركة لعقل السامع. وأهم تلك المحاور هي الأصول العقيدية الثابتة بإجماع علماء الاسلام، وهي العروة الوثقى لمن آمن بها مجتمعة، والحكم بكفر من أنكر أحد أصولها. وهذه الأصول هي: التوحيد الالهي من جهة الذات والصفات، توحيداً خالصاً من الشرك. ثم النبوة المنبثقة بالوحي الشاهد بكمال النبي ومن ينوبه بالخلافه تكمياً للرسالة. ثم المعاد وحقيقة الحياة في الآخرة وما فيها من حساب جزاء ومن نعيم وعقاب، وإجمالها يكون كما يلي:

أولاً- مضمون التوحيد ودلائله في السؤال القرآني

أمتاز السؤال القرآني العقيدى بخطاب علمي يستهدف إثارة دفتان العقول، ومن خلال استقراء الآيات المباركة التي أستمع فيها الاستفهام المجازي لإثبات أصل التوحيد، أحصيت حدود (٢٨٥) آية، وفي بعضها أكثر من سؤال مجازي تناولت هذا الأسلوب الجدلي بجزالة وحكمة بالغة. إن الملاحظ من الأسلوب الاستدلالي التركيز في إثبات التوحيد على نفى الشريك والأغيار عن الذات المقدسة وصفاتها. ومن وحي الضرورة العقلية والأدلة القطعية كدليل العلية وأدلة برهانية يتم من خلالها الاستدلال على وجود الذات المقدسة.^{١٠} وأما هذا الاستدلال القرآني التنبؤي على إثبات حقيقة التوحيد من خلال السؤال المجازي إنما يتم بحسب وجوب وإمكان تصور ثبوت الصفات للذات المقدسة ويكون من جهتين هما: الأولى من جهة إثبات الصفات الذاتية الواجبة، والثانية من جهة إثبات الصفات الفعلية الممكنة، وبإضافة جهة ثالثة وهي صفة العدل الالهي (صفة لأسماء الأفعال) باعتبارها مطلباً خاصاً، وفي اللغة يكون أسم الصفة هو كل أسم يدل على صفة شيء من المعاني حيث يحمل عليه الموصوف بصيغ عديدة،^{١١} وقد خصص العلماء لكل جهة من الصفات أسماء تتحلى بها^{١٢}، وكما ورد في كلماتهم ما نصه: "أعلم أن الأسماء تنقسم في نوع من الأقسام إلى أسماء الذات والصفات والأفعال، وإن كان كلها في وجه أسماء الذات، ولكن باعتبار ظهور الذات فيها تسمى أسماء الذات، وبظهور الصفات فيها

^{١٠} أستدل علماء الكلام على إثبات وجود الله تعالى بعدة أدلة عقلية منها: دلالة الأثر على المؤثر، ودليل حدوث العالم، ودليل النظم والتدبير، وبرهان الحركة وغيرها من الأدلة العقلية والعلمية المفصلة في الكتب الكلامية. أنظر: الشيخ جعفر، السبحاني، محاضرات في الالهيات، ص ٨-٣٠؛ وعرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية، ص ١٦٥-٢٠٣؛ وغيرها.

^{١١} أنظر: الشيخ مصطفى، الغلابيني، جامع الدروس العربية، ج ١، ص ٩٧-٩٨.

^{١٢} أنظر: مصطفى، الخميني، تفسير القرآن الكريم، ج ١، ص ٢٣٨.

تسمى أسماء الصفات، وبظهور الأفعال فيها تُسمى أسماء الفعل^{١٣}، ومما تقدّم يكون المبحث موزعاً بالتفصيل على ثلاثة أقسام هي: دليل أسماء الذات على التوحيد ودليل أسماء الأفعال والثالث هو دليل العدل الآلهي.

ويبدأ التحقيق عن الاسم الخاص للمولى (تعالى) وهو لفظ الجلالة (الله)، حيث تمهد الآية المباركة باستعمال السؤال المجازي في إثبات التوحيد الخالص بنفى السمي بلفظ الجلالة عن غير الله (تعالى)، حيث يقول تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^{١٤}، فالسمي تعني: كلُّ نظيرٍ يستحق أن يُسمى باسمه أي: "هل يُسمى بالله غيره، وهو علمٌ يدلُّ على الذات المقدسة الموصوفة بجميع الكمالات التي هي مبدأ لجميع الموجودات، إذ لا يجب في كل اسم أن يكون مشتقاً، وألا لزم التسلسل"^{١٥}، ثمَّ يتدرج الجدل صعوداً ليصل الى مرحلة إثبات التوحيد من خلال دليّة أسماء الصفات الكمالية، إنّ الخطاب القرآني حافل بشواهد استدلالية كثيرة من توسط صفة الخالقية في إثبات التوحيد، فاستعمال السؤال المجازي بمضامينه يؤكد اعتماد القرآن الكريم منهجاً خاصاً في الاستدلال العقلي البسيط والواضح على إثبات التوحيد عن طريق إثبات صفة الخالقية كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^{١٦}، فالإنكار بنفى المساواة بـ(أفمن) يتوجه لكل عاقل يتوهم التساوي أو قياس ما لله (تعالى) الى ما لغيره من نفس صفات الخلق ولوازمه من النعم، فمن ثبت له إيجاد الخلق والنعم وابتدعها بذاته أولى بالعبادة واحقّ بها ممن لا يملك الوجود بذاته من الأوثان المصنوعة فضلاً عن أن يدعى لها قدرة الخلق،^{١٧} وهو تقرير لدليل برهان التمانع العقلي.

وتعتبر صفة العدل من الصفات الكمالية الايجابية للذات المقدسة نظير صفة العلم والقدرة، أو على الأقل نظير الخالقية والرازقية والتدبير، وأنّ الغاية من بحث إثبات العدل للمولى (تعالى) هي إيجاد رابطة محكمة بالضمير والشعور تضي الطمأنينة وعلاقة الحب والود بين العبد ومولاه، وبالتالي فإنّ أيّ موجود يأخذ ما يستحقه من كمال الوجود،^{١٨} ومن هذه الآيات التي استعملت السؤال المجازي بدلالة العدل على التوحيد من خلال إثبات الكمال في حكمه من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا

^{١٣} حيدر، الآملی، تفسیر المحيط الاعظم، ج ١، ص ٩٨

^{١٤} سورة مريم: ٦٥

^{١٥} جمال الدين أحمد بن فهد، الحلي، المختصر من شرح المختصر، ص ٨.

^{١٦} سورة النحل: ١٧.

^{١٧} انظر، محمد حسين، الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٢١٩.

^{١٨} انظر: مرتضى، المطهری، العدل الآلهی، ص ٥٩-٧٤.

عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ أَى: "إذا كنتم لا تتيقنون كذب هذا الكلام، فعلى الأقل ليس لديكم دليل على إثباته، فلماذا تتهمون الله وتقولون على الله ما لا تعلمون؟!".^{٢٠} فالسؤال الإنكارى المتضمن للتوبيخ فى (أتقولون) هو إنكار لإضافتهم الأمر بالقبيح إليه (سبحانه) والإنكار شهادة عليهم بالجهل والحوار مع المشركين فيه استدلال بالنفى وإنكار ادعائهم أمر الله (تعالى)، وفيه توبيخ لتقليد اسلافهم بالسوء والفحشاء؛ لأنَّه (سبحانه) عدلٌ واحكامه موافقةً لكمال الانسان وسعادته، والفواحش مثار نفرةً للنفوس الراقية، وتأكيده النفي ورد فى آية تردفها (قل أمر ربي بالقسط)، أَى: بالعدل، والتكذيب كان كبروياً لا بجزئية اتباعهم سيرة سلفهم، فكلُّ تقليدٍ أعمى باطل وكل قول بلا علم محال.^{٢١}

ثانياً- مضمون النبوة ودلائله فى السؤال القرآنى

أنَّ أكبر دلالة على إثبات النبوة هو الاعجاز القرآنى، ومن هذه الدلالة المستعملة فى الخطاب القرآنى باستعمال السؤال المجازى يمكن الكشف عن البرهان العقلى فى إثبات النبوة بالإضافة الى بيان مؤهلات الكمال العقلى والاخلاقي لشخص النبىِّ الاكرم (صلى الله عليه وآله)، مع الاستدلال على ضرورة أن يخلفه شخص له مثل مؤهلاته؛ لضمان استمرار مسيرة رسالة التوحيد جيلاً بعد جيلٍ بخطوات واعدة فى هداية البشرية، وإنَّ الطابع الغالب للاستدلال القرآنى فى إثبات النبوة هو الأسلوب العقلى بالبرهان البسيط، حيث يعتمد على القضايا الأولية كالبدهة والثوابت المسلَّمة كأساس للإثبات ودفع الشبهات،^{٢٢} وربما استعمل الخطاب الالهى الأدلة النقليَّة من الكتب السماوية الغير محرفة وألزمهم بمضمونها، يجد المتتبع أنَّ العقلاء أول من يؤمن برسالة السماء ويؤيد الانبياء، اما الجهلة والمتعصبة فهم أول المكذبين والمعترضين بدعاوى خالية من الحجَّة والبرهان، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ۖ﴾^{٢٣} فالسؤال فى (أكان) إنكارى وفيه

^{١٩} سورة الأعراف: ٢٨.

^{٢٠} ناصر مكارم، الشيرازى، تفسير الامثل، ج ٥، ص ١٤.

^{٢١} انظر: محمد بن الطاهر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨، ق ٢، ص ٨٢-٨٤؛ والفضل بن الحسن، الطبرسى، جوامع الجامع، ج ١، ص ٦٥٠.

^{٢٢} انظر: محمد بن الحسن، الطوسى، التبيان، ج ٨، ص ٥١٠؛ وابن ادریس، الحلى، المنتخب من تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٢٠؛ وفتح الله، الكاشانى، زبدة التفاسير، ج ١، ص ٢٧١؛ وفخر الدين، الرازى، مفاتيح الغيب، ج ٢٢، ص ١٧٩؛ وابو حيان، الاندلسى، تفسير البحر المحيط، ج ٢، ص ٣٩٢.

^{٢٣} سورة يونس: ٢.

تضمن لمعنى التعجب من تعجبهم، وفيه دلالة التكذيب لدعوى استحالة الإحياء إلى بشر منهم، مع إشعار لعدم توقع هذا التعجب منهم،^{٢٤} وأنه موقف غير عقلاني؛ وذلك لانحصار إمكان الإحياء للبشر دون سائر الموجودات من الملائكة والجن؛ لأنها موجودات لطيفة وغير مرئية ولو قُدرَ وبُعِثَ للبشر لزم أن تتمثل بصورتهم البشرية، وكيف يتعجبوا وقد بعث الله (تعالى) أنبياء من البشر على مر التاريخ؟!^{٢٥} فتعجبهم مردود عقلاً.

ثالثاً- مضمون المعاد ودلائله في السؤال القرآني

إن إثبات حقيقة المعاد كبروياً يعود في أصله إلى إثبات التوحيد بأقسامه والنبوة بدلائلها، وربما أُستدل عليه صغرياً بالآثار الحسيّة من إهلاك الأمم السابقة لمن يُنكر الغيب ولا يؤمن إلّا بما يرى. حيث يجد الباحث تشابهاً في طريقة الاستدلال الإثباتي للمعاد باتباع المنهج العقلي للبرهنة على حقيقته، وهو منهج استدلالى بسيط تُناغم حججه الدامغة عقول عوام الناس؛ ليرشدهم بدلالته إلى نور الغريزة الفطريّة ويثير دفائن معارفهم. فشواهد الاستعمال القرآني للسؤال العقيدى متظافرة في دعوتها للعقل والتدبر في أمر مصير البشرية كما جاء بيانه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نَعْمَرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^{٢٦} وفيها تعريض لمن أنكر المعاد، فحرى به أن يتفهم مغزى هذا القياس الخفى من تعلّق قدرة الله (تعالى) بجعل الشباب شبيهاً فهو القادر على أن يعيد الموتى إلى الحياة، وهذه الانتكاسة تشعر بقرب الأجل فلا بد من تعقل معناه.^{٢٧}

يكون الاستدلال على مبدأ المعاد بمثابة النتيجة لمقدمات إثبات التوحيد والنبوة بما تنطوى عليها من مباحث متلازمة لأصول العقيدة الإسلامية، بالإضافة إلى استعمال الحقائق الوجدانية المرتكزة في العقول كالأثار المشهورة الدالة على إهلاك الأمم السابقة بأمر القوى الجبار (جل جلاله)، وإنّ حتميّة الموت لا يختلف عليها اثنان ويبقى التفكير في مصير الإنسان وماهيّة العالم ما بعد الموت أمراً ضروريّ المعرفة.

^{٢٤} انظر: محمد بن الطاهر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٨٣-٨٤؛ ومحمد حسين، الطباطبائي، الميزان، ج ١٠، ص ٨.

^{٢٥} انظر: محمد بن الحسن، الطوسي، التبيان، ج ٥، ص ٣٣٢؛ وفخر الدين، الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ٦٠.

^{٢٦} سورة يس: ٦٨.

^{٢٧} انظر: محمد بن الطاهر، ابن عاشور، مصدر سابق، ج ٢٣، ص ٥٣-٥٥.

قائمة المصادر

• القرآن الكريم

١. أحمد بن زكريا، ابن فارس، مجمل اللغة، طبعة ٢ (بيروت-١٤٠٦هـ).
٢. ابن ادريس، الحلبي، المنتخب من تفسير القرآن، طبعة ١ (قم-١٤٠٩هـ).
٣. أبو حيان، الاندلسي، تفسير البحر المحيط، طبعة ١ (بيروت-١٤٢٠هـ).
٤. إسماعيل حقّي الخلوّتي، البروسوي، تفسير روح البيان، نسخة الكترونية-١٨٣٩م.
٥. جار الله، الزمخشري، أساس البلاغة، طبعة ١ (الرياض-١٤٢٣هـ).
٦. جمال الدين أحمد بن فهد، الحلبي، المقتصر من شرح المختصر، طبعة ١ (قم-١٤١٠هـ).
٧. الحسين الراغب، الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، طبعة ١ (بيروت-١٤١٢هـ).
٨. حيدر، الآملي، تفسير المحيط الاعظم، ط ٣ (قم-١٤٢٨هـ).
٩. حسين جمعة، جمالية الخبر والانشاء، ط (دمشق-٢٠٠٣م).
١٠. الشيخ جعفر، السبحاني، محاضرات في الالهيّات، طبعة ١ (قم-بلا).
١١. الشيخ مصطفى، الغلابيني، جامع الدروس العربية، (ط ٦-بيروت)
١٢. عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية (ط ١-أسد بغداد)
١٣. فتح الله، الكاشاني، زبدة التفاسير (ط ٣-طهران).
١٤. فخر الدين، الرازي، مفاتيح الغيب (ط ١-بيروت).
١٥. الفضل بن الحسن، الطبرسي، جوامع الجامع (ط ٢-بيروت)،
١٦. محمد بن الحسن، الطوسي، التبيان (ط بيروت-بلا)
١٧. محمد بن الطاهر، ابن عاشور، التحرير والتنوير (ط تونس-١٩٨٤م).
١٨. محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب (ط قم-١٤٠٥هـ)
١٩. محمد حسين، الطباطبائي، تفسير الميزان (ط ١-بيروت)،
٢٠. محمد علي يوسف، أسلوب الاستفهام في القرآن، طبعة ١ (القاهرة-١٩٨٩م).
٢١. مرتضى، المطهرى، العدل الالهي (ط بيروت-بلا)،
٢٢. مصطفى، الخميني، تفسير القرآن الكريم (ط ١-قم)
٢٣. ناصر مكارم، الشيرازي، تفسير الامثل (ط ١-قم)،
٢٤. ورده كحيل، السؤال في ضوء القرآن (رسالة ماستر-غزة)
٢٥. يوسف عمر لعساكر، الجدل في القرآن (رسالة ماستر-الجزائر)